وأوصى فقال : أوصيت أهلي إذا حضرني الموت بثلاث : ألا يتبعني راجز ولا نار ، وأن يعجل بي فإن يكن لي عند ربي خير ، فهو خير مما عندكم[1] .

* * *

لو لم تأتها أتتك!

في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء[2] كلام رائع أختار منه ما يلي :

جاء رجل إلى النَّبي ﷺ ، وفي البيت تمرة ، فقال رسول الله ﷺ :

« هاك ، لو لم تأتها أتتك » رواه ابن حبّان .

ثم يقول ابن حبّان : التوكل هو قطع القلب عن العلائق برفض الخلائق ، وإضافته بالافتقار إلى محوّل الأحوال ، وقد يكون المرء موسراً في ذات الدنيا وهو متوكل صادق في توكله إذا كان العدم والوجود عنده سيَّيْنِ لا فرق عنده بينهما ، يشكر عند الوجود ، ويرضى عند العدم ، وقد يكون المرء لا يملك شيئاً من الدنيا بحيلة من الحيلة ، وهو غير متوكل إذا كان الوجود أحبَّ إليه من العدم ، فلا هو في العدم يرضى حالته ، ولا عند الوجود يشكر مرتبته .

ثم ينقل عن الكريزي شعراً :

فلو كانت الدنيا تنالُ بفطنة ... وفضل عقول نلتُ أعلى المراتب

ولكنما الأرزاق حظٌّ وقسمة ... بملك مليك ،لا بحيلة طالب

---

(١) للتوسع راجع طبقات ابن سعد : ٥/ ١٤٠ وما بعدها .

(٢) من روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان البستي : ١٥٥ـ١٦٠ .

وينقل عن عبد العزيز الأبرش قوله :

لو كان في صخرة في البحر راسية صمّاء ملمومة مُلْسٍ حواليها
رزقٌ لعبد براه الله . . لانفلقت حتى تؤدّي إليه كلَّ ما فيها
أو كان بين طباق السبع مطلبه يوماً لسهَّل في المرقى مراقيها
حتى ينال الذي في اللوح خُطَّ له إن هو أتاه ، وإلا فهو آتيها

ثم ينقل ابن حبان عن نافع بن خالد قال : دخلنا على رابعة العدوية فذكرنا أسباب الرزق ، فخضنا فيه وهي ساكتة ، فلما فرغنا قالت رابعة : خيبةً لمن يدعي حُبّه ثم يتهمه في رزقه! .

* * *

فإن الموت قد حان :

روى العلامة الحريفيش ـ رحمه الله ـ :

أن سفيان النووي ـ رحمه الله ـ خرج إلى مكة حاجّاً ، فكان يبكي من أول الليل إلى آخره في المحمل ، فقال له شيبان الراعي : يا سفيان لِمَ بكاؤك ؟ إن كان لأجل المعصية فلا تعصه ، فقال سفيان : أما الذنوب فما خطرت ببالي قط صغيرها ولا كبيرها ، وليس بكائي يا شيبان من أجل المعصية ، ولكن من خوف الخاتمة ، لأني رأيت شيخاً كبيراً كتبنا عنه العلم وعلم الناس أربعين سنة ، وجاء بيت الله الحرام سنين ، وكان تلتمس بركته ، ويستسقى به الغيث ، فلما مات تحوَّل وجهه عن القبلة ومات إلى المشرق كافراً ، فما أخاف إلا من سوء الخاتمة ، فقال له : إن ذلك من شؤم المعصية ، والإصرار على الذنوب ، فلا تعص ربك طرفة عين :